١. مع مواكب الحضارة

إن تاريخ الحضارة يبدأ مع العرب . فجنة عدن — وفقاً للكتاب المقدس — تحدها اربعة انهار هي الفرات ، ودجلة ، والنيل . اما النهر الرابع فلايزال الى اليوم مستعصياً على التحديد . ولكن ثمة شكاً قليلاً في ان كلمة « عَدْن » هي تحريف للكلمة السومرية « عدينو » ، وتعني المرج الواسع ، او السهل .

وفيما كانت مصر تناضل ، ما تزال ، من اجل توحيد النيلَيْن وإنشاء حضارة ما برحت تسحب ذيولاً من المجد الفرعوني ، كانت « أريدو » و « عكر قوف » السومريتان مدينتين كبيرتين زاهرتين . وإذْ كان نهرا الفرات ودجلة يلتقيان شمالي « أُور » ويشكلان نقطة اتصال اخذت فيضاناتها السنوية تدفع بالدلتا في اتجاه الخليج الفارسي بنسبة نحو من مئتي ياردة كلّ عام ، فقد نشأت مدن جديدة حول الارض الخصبة ، وغدت ممالك سومر المدينية غنيةً قوية ، ومن ثمّ ، متبلدةً كسولاً .

ولسنا نعرف شيئاً كثيراً عن أولية السومريين . ولكن الشيء الثابت انهم كانوا غير ساميين . وكانت ارضهم تنبسط ما بين ضفاف دجلة والفرات وعلى طولها . والواقع انهم كانوا ينعمون في « عَدْنهم »

تلك عندما برزت اول موجة من موجات الساميين المهـــاجرين خارج اسوار مدنهم . وما هي الا فـــترة حتى استولى الرعاة الساميون على سومر ، كما استولوا على فلسطـــين ، وورثوا عن السومريين اشياء كثيرة منها القناطر والعقـود المعمارية والعربات ذوات العجلات .

وحوالى سنة ٢٥٠٠ ق. م. قاد الزعيم الساميّ ، سرجون الاول ، قواته لقتـــال السومريين وسحقَ فيالقهم في سلسلة من المعارك تركت العربَ * سادةً على البلاد الـتي انتهت في ما بعد الى ان تصبح « بابل » . وثبّت « نارام سين » ، حفيد سرجون الاول ، هذا الفتح . واشرقت شمس الحضارة العربية التي لا تزال معنا على الرغم من احتجابها اربعة قرون .

واذا كنا نجهل اصل الشعب الذي سكن سومر ، فكذلك نجهل اصل العرق الساميّ ، على وجه الدقة . فهناك من يقول ان « ابناء سام » هؤلاء قد نشأوا ، اول ما نشأوا ، بين حاميي افريقية الشرقية ، ثم انتقلوا الى شبه الجزيرة العربية من طريق باب المندب . وهناك من يقول إن بلاد العرب هي مهد الجنس الساميّ . والرأي الثاني ارجح .**

وسواء اقدم الساميون من افريقية او من تـــلال سبأ فقد

---

* من الواضح ان المؤلف يقصد بالعرب هنا الساميين . ولعله يعتبر الساميين كلهم عرباً على اعتبار انهم انطلقوا من شبه جزيرة العرب. [المعرب]

** تصرفنا في ترجمة هذه الفقرة على اساس من المصادر التاريخية الموثوقة بسبب من اضطراب الاصل . [المعرب]

انتشروا في داخل الجزيرة من زاويتها الجنوبية الشرقية التي تشكل اليوم مملكة اليمن . ويغلب على الظن ان خط الهجرة كان يمتدّ بمحاذاة النجاد المتاخمة للبحر الاحمر . تلك كانت طريق القوافل القديمة من الصين والهند، والسبيل الوحيدة التي تمتاز ارضها بقابليتها للزراعة ، وبأنهـــا تنبت عشباً تأكله الجمال والحمير والاغنام التي تؤلف الى اليوم عماد الحيـــاة الاقتصادية عند البدو ، أو عرب الصحراء .

وينبغي ان تكون القبائل السامية المنتشرة في الارض قـــد انحرفت — عند موقعي مكة والمدينة الحاليين — في اتجاه الشرق والشمال الشرقي ، عبر السهوب الوسطى وعبر أودية الجبال ، نحو الخليج الفارسي . في حين اتجهت قبائل أخرى نحو ذلك الصَّدْع الجيولوجي الهائل الذي ينتظم البحر الميت ووادي الاردن الذي يُعرف اليوم بوادي عربة .

وفترة التوسع هذه من هضاب اليمن الى «فلسطيا» التي حرّفها الرومان الى « فلسطين » استغرقت — من غير شك — نحواً مـن الف سنة كاملة . وفي وقت ما من هذه الفترة الألفية انفصل اسلاف اليهود ، في ما يبدو ، عن الجذر الساميّ . ولسنا ندري السبب الذي ادى الى هذا الانشقاق . وارجح التعليلات لهـــذا الحدث ان العبرانيين كانوا اقلّ ميلاً الى التحضر والاستقرار من سائر العرب فهم يمعنون في الترحّل مع مواشيهم ، وأقل انصياعاً للمواضعـات التي تنشأ دائماً مع البيت والعمران البشري . وهكذا عبرَ هؤلاء المهاجرون المغامرون ، المتمردون ، شبه جزيرة سينـاء الى مصر

حيث ترك اثرهم في النظام المصري الاجتماعي طابعه على التاريخ .

وقبل ابراهيم ، الأكّدي الأوريّ ، بفترة طويلة هبط الرعاة العبرانيون دلتا النيل الخصيبة واخرجوا الفلاحين المصريين منها . ولم تكن مصر آنذاك دولة قوية . فبعد أسرة « آختوي » التي حكمت البلاد حكماً ضعيفاً من سنة ٢٢٧٠ الى سنة ٢٢٢٢ ق.م عرفت مصر عهداً من الحروب الداخلية اشاع فيها الفوضى وحرمها من حكومة مركزية قوية . وقد نتج عن ذلك ان اجتاح الغزاة الساميون المدن القائمة في دلتا النيل، وخضعت مصر نفسها لسلطانهم عندما بدأ حكم الهكسوس (الملوك الرعـــاة) وخلفاؤهم الذي دام خمسمئة عام .

ولم يكن ليحيط بهم ، بادىء الامر ، شيء من أبهة الملـــك وجلاله . وقد قال المؤرخان المصريان « إيبووار » و « مانيثو » إنهم سوقة أخسّة سدوا منافذ الشوارع وافسدوا لغـة مصر . وأياً ما كان فقد استولى هؤلاء السوقة على زمام السلطة المدنية ، ونهبوا الاغنيـــاء وأخرجوهم من بيوتهم . ثم إن انهيار البِنْية الاجتماعية كلها وموجات طامية من المجاعة أكملا عمل الغزاة ، فلم يجدوا ، حين أقاموا عاصمتهم في ممفيس ، آخر الامر ، غير مقاومة ضئيلة . وفرض ممثلون لستّ أسرٍ حاكمة سلطانهم على نواحٍ من مصر مختلفة قبل أن توفق قوّات مصر الجنوبية الى اخراج الهكسوس من البلاد. ويذكر المؤرخ اليهودي يوسفيوس ان جيش الهكسوس طوردَ على محاذاة البحر الاحمر ، قرب البحيرات المرّة في اغلب الظن حيث كانت المياه ضحلة ، وإلى سيناء . وينص هذا المصدر

على ان عدد افراد ذلك الجيش المنهزم بلغ مئتين واربعين ألف رجل ، وأنهم «استقروا في بيت المقدس وأسسوا مملكة يهوذا .»

ويحسب بعض المؤرخين ان هذا الجلاء الأجماعي هو الاصل لقصة خروج بني اسرائيل من مصر كما وردت في الكتاب المقدس . في حين يُنكر بعضهم الآخر ذلك . وأياً ما كان فقد خضعت بيت المقدس (اوروشليم — اوروشالاييمو) وغيرها من المدن الفلسطينية او الكنعانية لسلطان اليهود حوالى سنة ١٤٠٠ ق م. وهو تاريخ يكاد يتفق وظهور دعوة إخناتون الوحدانية في مصر . وليس ينبغي ان يُظنّ ان هذا الجيش المفكك المهزوم المطرود الى صحارى سيناء وجبالها شنّ غارة مباشرةً ومظفّرة على ارض كنعان . فلعلّ قرناً كاملاً من الزمان انقضى قبل ان يوفق حفدة ملوك الرعاة هؤلاء الى ان ينتهوا الى ارض اللبن والعسل ، ليجدوها قويةً حصينةً ، وليقرروا الاقامة خارج اسوارها في انتظار الفرصة السانحة .

وفي الوقت نفسه ، وبعد ان طوقت قوة من المصريين المستعمرات العبرانية وأسرت اهلها ، انتهت المبادىء الدينية الجديدة القائلة بالـه واحد وبتساوي الارواح في عالم آخر ، الى شعب كان يكره تقديس «الابعال» المحليين في كنعان كرهاً طبيعياً ، فاذا هو على أتمّ مايكون من الاستعداد لقبول دينٍ يجحد المعبودات الخرقاء الثقيلة الوطأة وينكر ان تكون للاغنياء أيما ميزة على الفقراء ، بعد الموت . وجائز ان يكون الدين اليهودي ، وهو دينٌ عملي بأكثر مما ينبغي بالنسبة الى شعب مترحل ، قد نشأ عن هذه

العقيدة المصرية. والشيء الذي لا ريب فيه ان مزامير داود وترانيم اخناتون تتشابه تشابهاً كبيراً جداً. وفي كتابه «فجر الضمير» قدّم الدكتور جيمس بريستد ترجمات متوازية تؤكد هذا الاحتمال.

وهكذا ففي مستهلّ القرن الثالث عشر ق.م. كان العبرانيون قد مكّنوا لانفسهم في ارض كنعان، فيما بلغت الحضارة العربية في بابل (باب الالـه) اوج مجدها وشرعت تنحدر بعض الشيء. وكان عهد حمورابي الملك الأموري (١٩٤٨ — ١٩٠٥ ق.م.) قد اعطى القومَ شرائع شهيرة، وعُـني بأعادة التحريج، ودشن برنامجاً للري جعل من الطرف البابلي من الهـلال الخصيب الجزء الاكثر غنىً وإخصاباً من نصف الدائرة العربية كلها الـتي تؤلف غياضُ فلسطين طرفها الاقصى الآخر. ومن نواحٍ كثيرة كانت بابل حمورابي مدينةً عصريةً الى حد يثير الدهش. فقد كانت المدينة تنبسط في محاذاة الفرات العظيم وقـد نهض «شارع المواكب» العريض على موازاة النهر تحيط به ابنية ضخمة عالية تتوّج الجنائن والاشجار كثيراً منها.

وكان «باب عشتروت» الحصين الذي تحميه سلسلة من الاسوار مزخرفاً منوّناً ومحلىً بنقوش رائعة تمثل ضروباً من الحيوان. وكان هيكل مردوخ العظيم، المعروف ببرج بابل، يرتفع فخماً جليلاً في «الحيّ المقدس» في الطرف الجنوبي من العاصمة. وكان يصلها ببابل الغربية، وهي ضاحية تقـع وراء النهر، جسرٌ لا تزال دعائمه راسخةً في اعماق النهر. وفي فترة متأخرة كانت ثمة طريق تمتد تحت الارض على طراز «نفق لنكولن» أنشئت على

ما يظهر في عهد الملكة سميراميس نصف الاسطوري . وليس من ريب في انها كانت عملاً رائعاً من اعمال الهندسة لأن تدفق الفرات وعمقه يجعلان منه نهراً اعتى واخطر من نهر الهدسون في نيويورك.

حتى اذا حكم الكلدانيون بابل تقلّصت رقعتها تقلصاً كبيراً بسبب من غارات الحيثيين والأشوريين عليها. لقد ظلت سامية ولكن حكامها الآن كانوا جماعة من التجار . والواقع ان مآثر بابل الثانية هذه في ميدان الحضارة كانت لغويةً وعلميةً . ففي ظل الكلدانيين حلّت اللغة الآرامية محلّ العبرية حتى لقد استعملها اليهود انفسهم في معاملاتهم اليومية ، وولدت الأبجدية . واصطنع العلماء الكلدانيون المعارف الفلكية التي ورثوها عن كهان مردوخ وعشتروت ، إلـه الشمس وإلـهة القمر ، لكي يحسبوا سير النجوم ويخترعوا نظاماً جديداً للكشف عن المستقبل عُرف آخر الأمر بعلم التنجيم .

وفيما كانت بابل الكلدانية – وقد غدت الآن طوال خمسة قرون مرزبانيةً فارسية – تعبد آلهتها وتقيم علاقات تجارية مع الهند والاراضي الواقعة وراء البحار الشرقية ، ومع مصر ، ومع اليونان والبلدان الخاضعة لرومة ، كان اليهود يحيون في يهوذا حياة قلقة مضطربة . فقد كانت المملكة القصيرة الأجل التي نحتها يشوع من عرب فلسطين ومكّن لها الملك داود قد انقسمت على نفسها بعد موت الملك سليمان ، وغرقت البلاد في بحر من الدماء بسبب من الحروب الاهلية المهلكة ، والغارات الخارجية ، وكانت آخرها تلك التي شنتها كتائب رومة . وقاوم العبرانيون، ولكن

مقاومةً غير كافية ، وبسطت رومة سلطانها على فلسطين باستثناء بعض الحصون الطبيعية التي لا تُقهر من مثل مدينة البتراء النبطية (العربية) وغيرها .

واستُهلّ التاريخ المسيحي في اعقاب قرنين اثنين من حروب العصابات ايضاً . ذلك أن ما يُعرف بالحروب المكابية لم يكن اكثر من سلسلة من الغارات الطارئة شنتها على المدن الخاضعة لاحتلال الرومان عصابات مسلحة من متعصبي اليهود . والحق ان هؤلاء المسلحين أذكوا هيستيريا العصر الجماعية ، وبخاصة في ما بين اليهود ، بما قاموا به من غارات ليلية لا تعرف الرحمة أو الاستبقاء ، على المدن ، وعلى خزانة الدولة ، ودار الصناعة (مصانع السلاح أو مستودعاته) ، ومن اضرام النار في البيوت ، وذبح « المتعاونين » . ثم الانكفاء تحت جنح الظلام . وأياً ما كان ، فقد وفق الفرسان الرومان الى ان يضعوا آخر الأمر حداً لهذه الحال .

واعتبر الاتقياء من يهود فلسطين الغزو الروماني للديار المقدسة اهانةً لـ « يهوه » . فقد كان رومان ذلك العهد يعبدون مجموعة الآلهة والالاهات ، بعضها يوناني وبعضها مصري . واذا كانت عبادة إيزيس – وهي عند المصريين بمثابة عشتروت عند الساميين – بغيضة الى قلوب اليهود ، فقد أولع بها الرومان ولوعاً كبيراً . وسرت بين اليهود نبوءةٌ تقول بأنهم سوف يستعيدون قوتهم ، وبأن رسولاً من رسل يهوه سوف يعيد مجد داود القديم . وفي السنوات التي عقبت الحروب المكابية أخضعت كل إشارة وكل فألٍ لامتحان دقيق ، ودُرست كل حادثة غير سوية من أحداث

الطبيعة لتقرير ما اذا كان يوم المسيح قد آذن بالانبلاج . لقد ظهر عددٌ كبير من الدجالين ، طبعاً ، ولكنّ ارتقاب رسول يهوه ما فتيء يشغل الناس في فلسطين ويصبغ حياة اليهود فيها بصبغة خاصة .

وكان بيلاطس البنطي يحكم فلسطين عند مفتتح الحقبة المسيحية . ذلك كل ما نعرفه من التاريخ . والواقع ان وجود يسوع ، ابن يوسف ، وحياته إنما يأخذان في الانبثاق حوالى القرن الثالث بعد الميلاد مع أسفار الانجيليين الأربعة . وكانت عقيدة التوحيد قد تسرّبت في ذلك العهد الى شبه جزيرة العرب ، والاراضي المحيطة بالخليج الفارسي . وبقدر ما كانت حياة يسوع التاريخية غامضةً كانت حياة محمد قطعةً من التاريخ . فقد كان محمد الذي قدّم لقومه القرآن — وهي كلمة لا تعني شأنَ كلمة Bible غير « الكتاب » — من بيت هاشم من قبيلة قريش الحجازية . وكان في اول امره يرعى الغنم ثم تزوج من أرملة اسمها خديجة . وقد بسط سلطانه على شبه الجزيرة كلها تقريباً ، حتى اذا توفي وفق خلفاؤه الى ان يوسّعوا دنيا الاسلام — خلال قرن واحد ليس غير — فهي تمتدّ من جبل طارق الى المحيط الهندي .

وقبل عام الهجرة ، الذي يُستهلّ به التقويم الاسلامي ، شقيت بابل بعدد من الفتوح غير الساميّة . وفي فلسطين ، استؤنفت حرب العصابات اليهودية بعد سقوط أسرة هيرودس ، ثم تطورت سريعاً الى حرب أهلية اشترك فيها الفريسيون والصدّوقيون وبعض الجماعات الدينية المنشقة . وكان الامبراطور

الروماني فسبازيان سعيداً بأن يدع هذه الفرق المتنازعة يُفني بعضها بعضاً ، مترقباً الفرصة المناسبة للأفادة من الوضع . واخيراً استولت القوات الرومانية على اوروشليم وأطلق عليها اسم « آليا كابيتولينا » Aelia Capitolina .

وحوالى السنة ٧٠ ب. م. كان اليهود في فلسطين في حالٍ بشعة من التفكك والفوضى . وكان العرب الأيدوميون يشكلون منذ زمن طويل أقوى شعوب فلسطين غير اليهودية . وبتدمير هيكل هيرودس لم يبق لليهود مركز ديني يجمع شملهم . واستمرت حرب العصابات وامتدت الى الخارج . وفي بلاد الرافدين اجرى اليهود مذبحة ذهب ضحيتها جماعة من العرب وغيرهم ، فما كان من الامبراطور تيطس الا ان انتقم من اليهود انتقاماً عاجلاً ودمّر اوروشليم تدميراً .

وبعد قرن من الزمان شهدت فلسطين عهداً جديداً من الفتن والحروب . ولم تنقضِ هذه الفترة الا بعد سلسلة من المعارك الدموية . وحُظّر على اليهود الباقين في فلسطين الدخول الى اوروشليم مهما تكن الظروف . ويذكر ديو كاسيوس ان اليهود خسروا ٥٤٠،٠٠٠ رجل في هذه الحروب ، عدا الآلاف الاكثر عدداً من اولئك الذين قضوا بالاوبئة والمجاعة . وعندما بزغ فجر القرن الثالث للميلاد لم يكن في فلسطين كلها غير قلة قليلة من اليهود . والواقع ان هجرة اليهود الاختيارية من فلسطين ابتغاء التجارة او التماساً للأمن لم تخلّف وراءها غير عدد قليل من القرى المتناثرة ، ولكن كل مرفأ من مرافىء البحر الأدرياتي والبحر

الابيض المتوسط اخذ نصيبه من المهاجرين . ووجّه آلاف من اليهود وجوههم الى بابل، وشخص آلاف آخرون الى بلاد العرب . ولكن النفوذ اليهودي في فلسطين الذي فرض نفسه في فترات متباينة على ساميي الطرف الغربي من الهلال الخصيب اصبح خبراً ماضياً .

ومن هذه الخلاصة الموجزة ، ولكن الصحيحة الدقيقة ، للاحتلال اليهودي لفلسطين ، **يدرك القارىء ان دعوى الصهيونيين بان يكون ذلك القطر وطناً قومياً لهم إنما تستند على عهدٍ شفهي خرافي أعطاه يهوه لموسى** . والواقع ان البروفسور آلبرايت ، احد كبار الثقات العالميين في تاريخ فلسطين القديم ، ينص في وضوح لا يحتمل اللبس على انه ليس في فلسطين أيما آثار يهودية ترجع الى ما قبل العهد الروماني الانطونيّ . قال* : « كان كثير من العلماء يعتقدون – قبل أن يبسط كول Kohl وواتزنجر Watzinger ومن بعدهما سوكينيك Sukenik نتائج أبحاثهم – أن بعض الكنُس الخربة في الجليل ترجع الى عهد المسيح ، قبل الثورة الاولى . اما اليوم فلم يبق أيما ريب في ان هذه النظرة كانت خاطئة ، وفي أنه ما من أثرٍ باقٍ ، في فلسطين ، يرقى الى ما قبل العهد الانطونيّ على ابعد تقدير . »

ويزعم الصهاينة أن ما يدعى « حائط المبكى » هو بقية من هيكل سليمان . وهو زعم باطل لأن الحائط غرانيتي ، وهيكل سليمان إنما بناه الفينيقيون من خشب الأرز . ويكاد يكون من

* W. F. Albright. *Archaeology of Palestine*, 1949.

الثابت اليوم، عند العلماء، ان ذلك الجدار جزء من الهيكل الذي بناه حوالى سنة ٢٠ ق.م هيرودوس الكبير ، الأيدومي ، الذي اعتنق اليهودية لاغراض سياسية * وهكذا فأن المسجد الاقصى ، وقبة الصخرة ، وقبة السلسلة هي وحدها ، بين آثار فلسطين ، التي ترقى الى ما قبل الاحتلال الصليبي للبلاد .

وفي بابل عرفت السلطة الساميّة أياماً عسيرة، على الرغم من أن عهودها كانت آمنة اذا قيست بالعهود التي مرت بها فلسطين . وهكذا خضع الكلدانيون اولاً لحكم الفرس ، ثم خضعوا في القرن الثالث قبل الميلاد لحكم الاسكندر المقدوني .

وأخيراً اخلى المقدونيون محلّ السلطة للفرس الأرساكيين الذين بنوا القصر العظيم في المدائن وأنشأوا امبراطورية قدّر لها ان تخوض الحرب ضد رومة . وكانت مصر قد غدت هيلينية بعد أن غودر احد قواد الاسكندر ، بطلميوس، حاكماً على الاسكندرية . واستعادت شبه الجزيرة العربية التي خضعت فترة قصيرة لسلطان الفرس ، استقلالها. وحين هزم المقدونيون داريوس الثالث انقطعت هدية اللبُان نفسها . ولكن حتى في بابل كان السكان الكادحون الناجحون لا يزالون ساميين عرباً : زراعاً ورعاة وشعراء وعلماء وتجاراً لم تزعجهم سلطة الساسانيين النائية ، وكان مقرها الآن في انطاكية السورية .

وفي كل مكان كانت اديان في دور الاحتضار. فقد ماتت الزرادشتية، بوصفها ديانة عالمية، مع داريوس الثالث . والميثولوجيا

* المصدر السابق نفسه .

الهيلينية التي اشرفت على الموت في بلاد اليونان لم تصل إلى رومة سليمة لم تمسّ . وكان الرومان يستوردون آلهة جديدة من مصر وسورية، فحلّ تموز ، ومثراس ، وايزيس محلّ أبولو وفينوس ، الى حدّ بعيد . وفي مصر ، اعتنق الاقباط النصرانية ، في حين أحالَ جنود رومة الوثنية آلهة مصر وإلاهاتها الى خرافة ، في ما بين عشية وضحاها تقريباً .

وفي الجوّ المضطرب الذي عاشت فيه رومة المتداعية الى السقوط اضطُهِدت النصرانية وأخصبت بسبب من هذا الاضطهاد نفسه . ودخل في الدين الجديد آلافٌ من الجنود والمهاجرين الاوروبيين والبلقانيين . ولكنْ بالرغم من كل ما حققته النصرانية من تقدّم فقد ظلت الحقبة على العموم غنوستية لا أدرية .

وكان تأثير الاسلام في عالمٍ مثل هذا متردّدٍ مترنحٍ حاسماً جداً . كانت الامبراطوريات القديمة قد تقوضت . وكان الفرس قد حلّوا محل اليونان . وحلت رومة محل امبراطورية الاسكندرية . ولئن ألحق الاسكندر العروش الشرقية بامبراطوريته ، لقد انحصرت اعظم انتصارات رومة في اوروبة نفسها . ولم تعد مصر ، بعد ان جثم على حدودها عدوّ قوي ، دولة يُخْشَى بأسها . وفي بيزنطة ، كانت الامبراطورية الشرقية قد جنحت الى الأفول ، وكانت عظمتها قد انتهت الى ان تصبح جوفاء بالفساد .

●

ومن شبه جزيرة العرب كان ينطلق إعصار . كان محمد قد هاجر من مكة الى المدينة سنة ٦٢٢ م . وكان قد انتصر على

الوثنيين في موقعة بدر (رمضان سنة ٦٢٤) فدخل العرب في الدين الجديد افواجاً افواجاً .

ومن ذلك الحين حتى سنة ٦٣٢ م. التي توفي فيها محمد تمّ توحيد الحجاز بعد أن ذللت العقبات القائمة دون ذلك واحدةً إثر واحدة. وفي هذا العهد نشبت مناوشات كثيرة بين محمد واليهود بسبب من تآمر هؤلاء مع عدد من القبائل الوثنية عليه . وكان من نتائج ذلك ان مُزقت ثلاث عشائر يهودية ونُفيت من الحجاز .

وفيما كانت الامبراطورية الرومانية الشرقية وبقايا رومة نفسها تحلم بالسلطان المستعاد كان محمد قد صهر العرب في شبه الجزيرة الكبرى في بوتقة إخاء جديد ذلك بأن اوثق الروابط العربية كانت تقوم ، من قبل ، على اساس من القبيلة والعشيرة . فلما بزغ فجر الاسلام تسامت عقيدته فوق هذه النظرة الضيقة واعلنت ان المسلمين كلهم اخوة . وفجأة نعمت بلاد العرب كلها لا بصلة نسب جديدة ، وبأيمان جديد فحسب ، بل بطريقة في الحياة جديدة بالكلية ايضاً . وليس في الاسلام هياكل مقدسة ، ولا مذابح كنسية ، ولا كهنوت . فالمسلمون يجتمعون في المساجد حيث يصلون ويتعلمون ويتناقشون . وأئمتهم رجالُ دين وقادة في وقت معاً . انهم يعلّمون رعيتهم الفروسية ، ويحاضرونهم في القرآن ، وينفذون الشريعة المدنية كما نصّ عليها كتابهم المقدس وفي غضون عشر سنوات ليس غير غدت العربية السعيدة ، او ارض الملوك ، ثيوقراطية دينية كل الناس فيها متساوون ، تحت راية الله .

وخلفَ النبيّ العربي ، بعد وفاته ، أبو بكر الصديق . وكانت حروب الردّة ، ولكن أبا بكر وُفق الى القضاء على الفتنة في سرعة بالغة . فلم ينقضِ عهده القصير (٦٣٢ – ٦٣٤) حتى غدا سيداً على شبه الجزيرة كلها .

وبعد موت الخليفة الأول انطلق العرب الى خارج الجزيرة ، ففتحوا سورية والعراق وفارس ومصر وليبيا وانشأوا قوة بحرية ذات شأن .

ثم انهم اندفعوا ، في اتجاه الشرق ، الى سمرقند ، بل الى حدود الصين . وغزوا الهنـــد واضافوا الى امبراطوريتهم باكستان الحالية وافغانستان وجزءاً كبيراً من كشمير . وفي اتجاه الغرب انطلق الفرسان العرب وقوات الاحتلال التي نقلها الاساطيل البحرية من ميناء قرطاجة (قرب تونس اليوم) وهبطوا ارض اسبانية سنة ٧١١ م. وغزا العرب فرنسة ايضاً ، ولكنهم هُزموا آخر الأمر في تُور ، غيرَ بعيدٍ جداً عن باريس ، على يد ابنٍ غير شرعي لـ « بيبين هيرستال » الزعيم الراييّ يُدعى كارل ، ومن ثمّ عُرف بشارل مارتل (شارل المطرقة) .

ومن ذلك الحين ارتدت جيوش العرب والمسلمين ، شيئاً بعد شيء ، الى اسبانية . وحكم العرب تلك البلاد كلها ، طوال قرون عدة باستثناء جزء صغير منها . وفي اواخر القرن الثـــامن كان الاسلام يسيطر على بحار العالم المعروف آنذاك وعـــلى شواطيء البحر الابيض من أعمدة هرقل (جبل طارق) الى الجبال العالية المتاخمة لبلاد التبيت . وكان العباسيون قد خلفوا الامويـــين ،

واقاموا عاصمتهم في بغداد .

ومنذ انشاء بغداد ، المدينة المدوّرة ، سنة ٧٣٢ الى منتصف القرن الثالث عشر وعالمُ الثقافة متمركزٌ في الديار الاسلامية . ففي أيما مكان آخر من اوروبة وآسية لم يكن غير جثة «السِّلْم الروماني» البالية . وفي الهند والصين ، وفي مكسيكو وبيرو ، تقاتلت فرق وطوائف وتفلسفت ثم خضعت لسلطان شعوب مجاورة تنزع الى الحرب اكثر مما تنزع الى الفلسفة . اما في سمرقند وحلب ، وفي دمشق وبغداد فنهضت الجامعات واقبلت وفود الطلاب من الشرق ومن اوروبة ليدرسوا الفنون والعلوم التي ما كانت تُدرَّس في أيما مكان آخر .

●

وما الذي حلّ باليهود خلال هذه القرون ؟ كان معظم الذين لم تشملهم الامم الاخرى يقيمون في فلسطين . فقد كان الحكم البيزنطي اقلّ خشونة من الحكم الروماني ، وكان عدد اليهود أقلّ من ان يساعدهم على تحدّي سلطان الدولة . وهكذا فتحت ابواب اوروشليم في وجوههم ، كرةً أخرى ، وانصرفوا الى حراثة الارض في قراهم ، وبنوا عدة كُنُس واعتصموا بجبل السلم .

أما خارج فلسطين فان اليهود المتناثرين الذين اتبّعوا غرائزهم التجارية وقصدوا الى شواطىء افريقية الشمالية فأقام بعضهم هناك ولحق بعضهم بالراية الاسلامية الى اسبانية والبرتغال . واستقر كثير من اليهود في بغداد حيث درس اولادهم مع الفرنجة والايطاليين واليونان في جامعة « المستنصرية » . في حين نزل آخرون ربوع

اليمن وإيران والهند .

وفي الشمال كسبت اليهودية موطناً جديداً . ففي إمارة « كييف » القوطية القائمة على الدنيبر وعلى شواطىء البحر الاسود وبحر قزوين كان برابرة الروسيا – المنهمكون حديثاً بتجارة ازدهرت سريعاً بعد أن سيطر المسلمون على الطرق التجارية بين الصين والهند والغرب – قد ضاقوا ذرعاً بأديانٍ ليس لها جذورٌ محلية .

وكانت احدى هذه القبائل ، الخزَر ، تقيم في الشواطىء الغربية من بحر قزوين ، وكانت ذات عَدَدٍ وبأس . وإذ كان المسلمون يحيطون بها من جانب (في فارس) والمسيحيون من جانب (في بيزنطة) فقد أبى زعماؤها ان يغضبوا اياً من الفريقين . حتى اذا اكتشفوا ديانة ثالثة تدعى اليهودية اتخذوا من يهوه الهاً لهم ، وأعادوا تسمية رعاياهم الذكور وفقاً للنعوت والألقاب الواردة في التوراة .

وكان السلاف الكييفيون الخاضعون لسلطان فلاديمير بعيدين عن شقي الرحى – الهلال والصليب – حتى إذا كرهوا آلهتهم القديمة وملّوها لم يتعيَّن عليهم التزام الحَيْدة الكاملة . وتذهب الاخبار الى ان جماعة من الخزر الداخلين حديثاً في اليهودية ، والذين انتهوا الى ان يصبحوا حاخامين ، وفدوا على كييف ليقنعوا السلاف باعتناق دين يهوه فسألهم الامير الروسي :

« اين بلدكم ؟ »

فأجاب الحاخامون :

« اوروشليم مدينتنا . »

فقال فلاديمير :

« ولماذا لا تعيشون في مدينتكم ؟ »

وأوضح الاحبار ان الـهم يهوه غضب عليهم وطردهم من ديارهم وعندئذ قال فلاديمير إنه لا يستطيع ان يطلب الى الشعب الروسي الايمان بالـه قد يفقد اعصابه في كل لحظة ويطردهم من اعظم واغنى بلدٍ في العالم . *

وإثر هذا الاخفاق اقبلت على كييف وفود اسلامية وبيزنطية . وأخيراً اختار فلاديمير النصرانية ديناً لشعبه لأن امرأته ، فيما يقال ، كانت بيزنطية . وايا ما كان فقد تقبّل ابناء كييف المتنصّرون حديثاً الصليبَ فدحرجوا تمثـال « بيرون » (الـه العواصف) الذهبي الفضيّ الضخم الى نهر الدنيبر وألقوه في مياهه الموحلة .

وفي ما هو اليوم كازاكستان السوفياتية الغربية قدّر لليهود الخزر غير الساميين – وكانوا حتى قبل دخولهم دين يهوه قوماً عنيدين عدوانيين وتجاراً بارعين – ان ينتشروا في اوروبة ، وان يطالبوا آخر الامر بفلسطين وطناً قومياً لهـم ، وهي ارض لم يعرفها اسلافهم القدماء على الاطلاق .

وفي الوقت نفسه كانت الغيوم قد اخذت تتلبد فوق « دار الاسلام » . ففي أوروبة حوّل الصراع بين الكنيسة والدولة الى حرب مقدسة ضد المسلمين المسيطرين على فلسطين . وانما خاض نبلاء اوروبة غمار هذه الحرب بدافع من القلق والأمل في الغنيمة

* Hyde, « Russia, Then and Always » . 1944 .

بقدر ما خاضوها بدافع من الحمية الدينية، فغادروا بلدانهم واقطاعاتهم ورهنوها في كثير من الاحوال لدى الكنيسة ، ليحملوا الصليب ويفدوا الى الارض المقدسة . وهكذا نشبت حروب دامية باهظة النفقات لم يُفد منها احد من الناحية المادية غير حاملي صكوك الرهن . ومن ناحية ثانية ، كان لهذه الحروب فائدة كبيرة ، لأن الصليبيين العائدين الى اوروبة حملوا معهم أنماطاً من الثقافة عجلت بخروج الغربيين من دنيا القرون الوسطى .

ونكب العالم الاسلامي ، بالاضافة الى الحروب الصليبية (١٠٩٧ — ١٣٥٠) بالغزو المغولي . ففي سنة ١٢٥٨ حاصر هولاكو بغداد واستولى عليها بعد ان ذُبح ما يزيد على ثمانين الف بغدادي وقُتِل الخليفة العباسي . ومن سنة ١٢٦٠ الى سنة ١٥٠٠ حكم المغول بغداد والعراق ، ولكنهم كانوا قد غدوا مغولاً متعربين . وفي عام ١٥١٦ فتح العثمانيون خرائب «دار الاسلام» . وعلى الرغم من دخولهم في الدين المحمدي لم يوفقوا الى اعادة الثقافة الاسلامية الى سابق مجدها . وطوال اربعمئة عام حُجب العرب ، وحجبت علومهم وآدابهم ، بدروع الاتراك — وهم شعب عملي يعوزه الخيال — الكثيفة القاسية .

وثار العرب غير مرة على الاتراك . ولا تكاد توجد مدينة عربية كبرى ليس فيها ساحة شهداء كانت المشانق التركية فيها وسيلة سرمدية الى إطالة اجل الحكم العثماني الفاسد . ولكن العرب لم يلمحوا بصيصاً من أمل إلا عند

اندلاع نار الحرب العالمية الاولى. وعندئذ وجهت بريطانية آثارياً شاباً يدعى توماس لورانس - وكان الجيش قد ابى قبوله لقصر قامته - لكي يراقب اعمال الفرسان العرب الذين كانوا يقضّون - تحت زعامة الامير فيصل ابن الشريف حسين - مضاجع القوات التركية في الحجاز الغربي.

وأعجب لورانس بالمعنوية العربية وأقنع الشريف حسين بالتحالف مع بريطانية على ان تكفل هذه الاخيرة قيام دولة عربية مستقلة بعد الحرب. وكان لورانس خالي الذهن بالكلية، آنذاك، من اتفاقية سايكس بيكو السرية بين لندن وباريس، تلك الاتفاقية التي قسمت الاراضي العربية الى منطقتي نفوذ احداهما بريطانية والاخرى فرنسية. وطرد العربُ القواتِ التركية من فلسطين وسورية والعراق، تساعدهم في بعض الاحيان، قواتٌ بريطانية. ولكن ما إن اختار الشريف حسين ابنه فيصلاً لعرش سورية الكبرى في دمشق حتى كانت عصبة الامم قد عهدت الى فرنسة في الاشراف على سورية ولبنان. وفي تموز ١٩٢٠ أخرج الجنرال غورو، المقطوع إحدى الذراعين، تدعمه الدبابات الفرنسية، القوات العربية من دمشق. أما فلسطين وشرقي الاردن والعراق فتولت بريطانية الوصاية عليها.